كتب

في كتابه «غروب الأولياء»، الصادر حديثاً، يقرأ الباحث الفرنسي تاريخ الحركة السلفية وراهنها في مصر، متتبّعاً تطوّرها من عقيدة تتبنّاها أقلّية إلى واحد من أهم التيارات المؤثّرة في قلب الإسلام السنّي، لكنّ تحليله شابَه تضخيم إعلاميّ على الطريقة الفرنسية السائدة

«غروب الأولياء» بعيون فرنسية

الحركة السلفيّة في مصر

نجم الدين خلف الله

الواقع المصري شديد التعقّد ومن مظاهر تعقّده تنازع تيّارات فكريّة متعارضة امتلاك أحقّية توجيه المجتمع ورسم المعنى الوجودي لمساره في التاريخ. فبعد احتكار الحداثيّين لسُلطة توليد القيم القانونية والثقافية، ظهرت تيارات ماضويّة، كحركات الإخوان والسّلفية، تقود توجّهات المجتمع في هذا البلد. لكنّها دخلت مُعترك التنافس حول كيفية هذه القيادة ومضامينها ووجهتها الأخيرة، لا سيما بعد انتشار وسائل التواصل الاجتماعي وشبكات الإعلام الخاصة التي يسّرت النفاذ ليس فقط إلى الداخل المصري بل والارتباط بمرجعيات عابرة للبلدان. استمرّ تنافُس هذه التيارات فيما بينها طيلة القرن الماضي، كما استمرّ تفاعُلها خلال المحطّات الحاسمة من تاريخ مصر الحديث (فترة النهضة، والاستعمار الإنكليزي، والحقبة المَلكيّة، وثورة الضباط الأحرار، وطور القومية العربية وصولاً إلى الثورة المصرية والانقلاب بالرئيس السابق محمد مرسي عام 2013)، أكان ذلك مع الدولة أو مع سائر القوى الفاعلة مجتمعياً، كالنّقابات ومؤسّسة الأزهر والطرق الصوفيّة والكنائس المسيحية وهيئات الفنّ والثقافة، ولعلّ آخرها «تكوين».

هذا المشهد المتوتّر المتغيّر هو ما خاض غماره الباحث الفرنسي ستيفان لاكروا عبر كتابه «غروب الأولياء: تاريخ السلفيّة في مصر وسياساتها» («منشورات سنرس»). وهو نتيجة أبحاث ميدانيّة تناول فيها انتقال السلفية المُحافظة من مجرّد عقيدة تتبنّاها أقليّة إلى «أهم مؤثّر في قلب الإسلام السنّي ونظام القيم فيه»، محلّلاً ما أطلق عليه: «نحو خطاب وممارسة يحكم هذا التيار»؛ وهو مما عدّه مساهمة في دراسة الروابط بين الديني والسياسي من خلال النموذج المصري في الحقبة المعاصرة والراهنة. قُسّم هذا الكتاب إلى ستة أقسام استعاد فيها الجذور الأولى للحركة السلفيّة بهذا البلد، وتعقّب تاريخها أثناء وبعد الحقبة الناصريّة، ثم تناول تطوّرها إلى «دعوة» محلّلاً علاقاتها بمرجعيتها في المملكة العربيّة السعوديّة، ثم «ازدهارها» تحت حكم الرئيس الأسبق حسني مبارك. وخصّص القسم الأخير لمواقف «حزب النور» إبان ثورة يناير 2011، وفيها تبنّى خيار البلاغة الشعبوية. وقد مُهِّد لهذه الأقسام بمقدّمة حول مفهوم «نحو الحركة السلفية»، باعتباره، مثل أيّ نَحْوٍ يحكم الخطاب، مجموعة من قواعد تضبط إيقاع الممارسة في التاريخ واللغة.

تشمل مصادر هذه الدراسة الاستجوابات الشفويّة التي أجراها لاكروا بين سنتي 2010 و2013 مع شيوخ السلفيّة، كما تشمل المنشورات التي كانت تدور في حلقات الجماعة وقتها، فضلاً عن الأمّهات النظريّة التي تعتمدها الحركة، مما يجعل عمله أقرب إلى بحث ميداني توسّل فيه بآليات الاستجواب والملاحظة والشهادات الشفويّة والاسترجاع التاريخي. كما استند إلى الدراسات القليلة التي أنجزت حول الموضوع، ويثير الاستغراب عدم رجوع الباحث إلى كتاب عزمي بشارة «في الإجابة عن سؤال: ما السلفية؟» (2018) رغم توفّره في ترجمة فرنسيّة!

وقد توخّت الدراسة نهجاً تاريخيّاً حيث استعاد ستيفان لاكروا جذور إنشاء «جمعيّة أنصار السنّة» عام 1926، حين كانت فرعاً للحركة الوهابيّة بمصر، إلّا أنّ هذا التأثير الخارجي ضعُف بمرور الوقت فصارت المرجعيّة مصريّة بحتة تمتح من أعمال مفكّري عصر النهضة الإصلاحيّين والسلفيين كرشيد رضا في مجلة «العروة الوثقى»، وهي التي بثّت الروح في علماء القرون الوسطى مثل ابن تيميّة، مُعمِّمةً تأثيره بفضل سهولة الطبع وسرعة انتشار الكتب. كما تطرّق لاكروا إلى تميُّز هذه الحركة، على صعيد الفكر السياسي، بمهادنة الأنظمة المستبدّة وعدم الخروج عليها تركيزاً منها على تربية المجتمع ونشر العلوم الشرعيّة وتلافياً لأية مواجهة مع السلطات القائمة. إلّا أنه أشار إلى أنّ هذه الأنظمة لم تتورّع عن استخدام هذا التيار لإضعاف حركة الإخوان المسلمين الذين يُعدّون، في نظرها، أخطر من غيرهم لتهديدهم السلطة بشكل مباشر.

مع ذلك، أكّد الكاتب مدى التنوّع العميق الذي يسمُ هذا التيّار بسبب اختلاف قاداته وتنوع توجهاتهم وكيفيات تعاملهم مع الأحداث الكبرى وطُرق التغلغل في المجتمع والتعاطي مع السلطات. فهذا التيّار أبعد ما يكون عن أيديولوجيا ثابتة أو أفكار جامدة، إذ أظهر أتباعه خلال العقد المُنصرم حيويّة واضحة في «التموقع» إزاء الأحداث المتعاقبة مع فهم دقيق لآليات التكيّف الذكي في سياق شديد الاضطراب على الصعيدَيْن الداخلي والإقليمي. تتصل أولى مشكلات هذه الدراسة باستخدام مصطلح «السّلفيّة» ذاته، الذي يُحيل في المخيال الفرنسي على خطر داهم يُهدّد القيم الجمهوريّة وعلى أصوليّة دوغمائية تُعارض الحداثة السياسيّة والإنسانية، بحيث يأتي القارئ بخلفيّة سلبيّة قبل حتى أن يطّلع على مضمون الكتاب. ولئن سعى الباحث إلى التخفيف من هذه السلبية، فإن انطباع القارئ الفرنسي سيظلّ على حاله، لأنه سيربط المصطلح لا محالة بما يراه في المدن الفرنسية وضواحيها، لا بما يُشير إليه في السياق المصري. كما يُلاحظ أنّ الباحث بالغ في تأكيد غياب ما سمّاه: «الأولياء»، أي: القائمين على العلوم الشرعية في الأزهر وشيوخ الطُّرق الصوفيّة وسائر الدُّعاة، عن المشهد الديني والقيمي، في حين أنّ الواقع يُكذّب ذلك، إذ لا تزال مؤسسة الأزهر، عبر وسائطها المتعددة، المرجعية الأولى في الفتوى والتدريس والارتباط الوثيق بشرائح المجتمع وبمؤسسات الدولة وحتى بأقاصي الريف. ويقال نفس الشيء عن الطُّرق الصوفية التي لا تزال تهيمن على قطاع كبير من الفئات الاجتماعيّة بأكثر من ست وسبعين طريقة مسجّلة رسمياً، فضلاً عن خطب مشايخها التي لا تنقطع.

كما أن تضخيم الاختلاف بين السلفيين والصوفية والأزهريين مصطنع ومضخّم، فهؤلاء جميعاً يتّفقون في العديد من المقولات الدينية، أولاها الاستناد إلى «السَّلف الصالح»، وعدم القول بالخروج على سلطة الحاكم والتركيز على التربية الاجتماعية ونشر العلوم الدينية وتزكية الروح، إذ المرجعيات الفقهيّة والأخلاقية وحتى العقديّة واحدة، وغالباً ما تتولّد الفروق عن سوء فهم لفظي. ولا نظنّ، أخيراً، أنّ استعارة «نحو الحركة» قد أفادت كثيراً في الإضاءة على تفاعُلات هذا التيّار وتحوّلاته، فهو مثل نظائره يعمل ضمن قوانين اجتماعيّة تحكُم سائر الظواهر، وليس سعي السلفية إلى «الصفاء السلوكي ورفعة الأخلاق ونقاء العقيدة» حكراً عليها، بل هو مشترك لدى سائر الفواعل الاجتماعيّين الذين ينشطون في الساحة. كما لم تُضف هذه الاستعارة شيئاً ذا بال في تحليل تحوّلات الحركة، بل بالعكس زادتها غموضاً وولّدت تعالُقات مبهمة. كان الأحرى اتّباع المنهج التاريخي الصارم مع تحليل تعدديّة العوامل المؤثّرة في كلّ مرحلة دون المبالغة في استنتاجات عن ظواهر ما زال بعضها قيد التحوّل، ولم تُحسم المعارك بعد. ولا نفهم أخيراً الإصرار على البحث في التشدّد الإسلامي، منذ أزيد من عقدين، كما لو كان الأصولية الوحيدة في العالم ثم الكتابة عنها مع ما يستتبع ذلك من تضخيم إعلاميّ يجعل منه خطراً على مصر ثم على فرنسا؛ وهو ما يذكّرنا بكتابات الفيلسوف الفرنسي رجاء غارودي: «أصوليّات» (1991)، الذي انتقد فيه التركيز الغربي على التشدّد الإسلامي وصمته المُريب عمّا يوجد في سائر المجتمعات والثقافات الإنسانية الأخرى من تطرّف - ولذلك ورد العنوان بصيغة الجمع - كاليهودية والكاثوليكية في أوروبا التي لا تختلف في عُنفها عمّا وصلت إليه أقسى الحركات المتطرّفة عندنا. لكن لا تُسلّط الأضواء المُغرضة إلّا على أصوليّاتنا، في استمرار لعقليّة الهيمنة والاحتقار التي يحملها في لاوعيهم مثقّفو الغرب وسلطاته.

وهكذا، فالكتاب قراءة أخرى لظاهرة عربية بعيون غربيّة، تُسقط عليها مقولات اشتُقّت من درس مجتمعات مختلفة. وتحت ستار البحث العِلمي وبعض مفاهيمه الفضفاضة، تتسلّل مصالح فرنسا الاستراتيجية ومقاييس ما تعدُّه هي خطراً داهماً أو حِلفاً مساعداً. لكن كم أخطأت الحسابات واتّضحت هشاشة مثل هذه الدراسات بسبب إهمال ما يقوله المسلمون عن ذواتهم أو ما يستنتجونه هُم من دراسة ظواهرهم؟

(كاتب وأكاديمي تونسي مقيم في باريس)

بطاقة

Stéphane Lacroix ستيفان لاكروا باحث وأكاديمي فرنسي، يعمل أستاذاً مشاركاً في «معهد العلوم السياسيّة» بباريس، ومديراً مساعداً لكرسي «دراسات الظاهرة الدينيّة» في المعهد ذاته، يُركّز في اشتغالاته على دراسة الحركات الإسلامية وتياراتها في المنطقة العربية والعالم، ومن مؤلّفاته ضمن هذا الإطار: «الإسلاميون السعوديون: الثورة الفاشلة» (2010)، و«سياسات مكافحة التطرف» (2022).

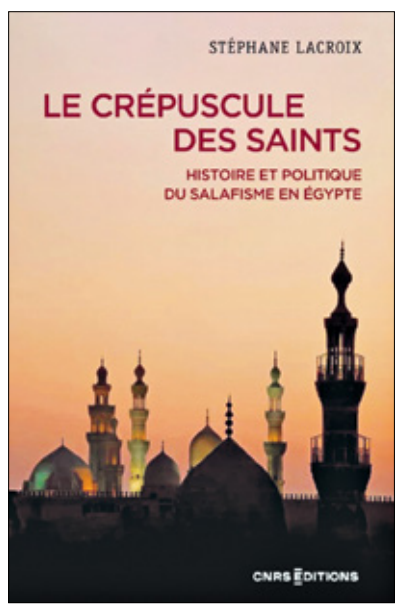

تتسلل مصالح فرنسا الاستراتيجية ومقاييسها في ثنايا البحث

اعتمادٌ على آليات الاستجواب والملاحظة والشهادات الشفويّة

ستيفان لاكروا

نظرة أولى

كرنفال القاهرة: مشاهد من عقد التسعينيات، عنوان كتاب للشاعر المصري علاء خالد (1960)، صدر عن «المرايا للثقافة والفنون». يفتح الشاعر في هذا الكتاب أرشيفه الشخصي، لا ليُظهر لنا السيرة الذاتية والمذكّرات، بل ليكشف طبقات من التاريخ الثقافي للمدينة: عمرانها وعمارتها ومخيّلتها الجمعية وجماعاتها الفنية وتجمّعاتها الأدبية ويوتوبياها المهزومة التي تتماسّ بطبيعة الحال مع التاريخ الشخصي، كما يُبرز الكتاب ما يُمثّله عقد التسعينيات بصفته عقد الاعترافات الحميمة، في القصيدة والرواية وفي كتابة الذات.

يتمرّد الجيل الذي عايش الحرب لاشعورياً على آبائه، وهو «تمرّد رمزي» مدفوع بالرغبة في خلق مجتمع بدون رموز السلطة التقليدية، أي مجتمع بلا أب، وهذا يجادل فيه المحلّل النفسي النمساوي الأميركي باول فيدرن (1871 - 1950)، بكتابه **مجتمع بلا أب: سيكولوجيا الثورات**، الذي صدرت الطبعة العربية منه عن «خطوة للكتاب العربي» بتوقيع المترجمَين أحمد جيو حسن وماهر رزوق. ويشير فيدرن، في كتابه الذي نُشر عام 1919، إلى أنّ الحماسة الثورية شكلٌ من أشكال الانتقال، حيث يتم إسقاط الغضب تجاه «الأب» (السلطة) على المؤسسات المجتمعية.

السرد الديني والتجربة الوجودية، عنوان كتاب جديد للباحث والمترجم المغربي سعيد بن كراد، صدر عن «المركز الثقافي للكتاب». يقرأ الباحث النصوص والمحكيات الدينية بوصفها «نماذج سلوكية» جاهزة يُنظر إليها باعتبارها «حياة سابقة» يجب مُحاكاتها والاهتداء بتعاليمها؛ حيث يكتب: «النصوص احتمالاتٌ دلالية فحسب، وذاك ما يُشكّل لازمنيتها في تصوُّر المؤمنين بها، وهي أيضاً مصدر طاقاتها الدلالية في عُرف من يبحث فيها عن معانٍ لا ترتبط بالمشخَّص فيها؛ إنّها في الحالتَين معاً لا تحمل معناها أو معانيها في ذاتها، بل تستمدّ جزءاً منها من المعتقَد أو من قرّائها».

في كتاب **النعيم والجحيم: العدالة الإلهية حسب الأرواحية** لـ آلان كاردبك، الصادر عن «دار نينوى» بترجمة منال محمد خليف، يُقدّم الكاتب الفرنسي وصفاً جديداً لما ينتظرنا بعد الموت. يتألّف العمل من أحد عشر فصلاً تبحث في موضوعات مختلفة، مثل: نقد العقائد المتعلّقة بالانتقال من الحياة الجسدية الدنيوية إلى الحياة الروحية، والعقاب والثواب في دار البقاء، والإيمان باليوم الآخر وعالم الغيب، منتقداً رؤية العلم الذي يرفض كلّ ما يخرج عن إطار الدليل الحسّي، ومبيّناً أنّ الروحانية لا تتعارض مع منهج التجريب الصارم.

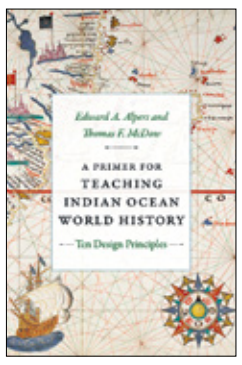

عن «منشورات جامعة ديوك» صدر **دليل لتدريس تاريخ المحيط الهندي العالمي: عشرة مبادئ للتصميم** للباحثَين إدوارد ألبيرس وتوماس أف. ماكدو؛ وهو كتابٌ موجَّه للطلّاب والمختصّين في الجغرافيا وواضعي الخرائط حول تاريخ المحيط الهندي. يستكشف العمل المصادر البحثية البعيدة عن النزعة الأوروبمركزية، حيث يقترح الباحثان موضوعات ذات صلة بمفاهيم الإمبراطورية، والجغرافيا، والعبودية، والتجارة، والمرض، والبيئة، كما يناقشان أصول التدريس وفقاً لمنهج نقدي عن مسطّح مائي شاسع شهد تنازُعاً استعمارياً مديداً، وما زالت بعض محطّاته التاريخية مجهولة.

قلوبٌ مكبولة، عنوان المجموعة القصصية الصادرة عن «دار صفصافة» للكاتب والمترجم السوري عدي الزعبي. يغوص الكاتب في التراث ليستلهم قصصاً ربّما نعرف بعض أحداثها ولكنّه يُكملها بعملية تخييل خاصّة، فنرى جميل بن معمر وبثينة ورحيله إلى مصر، والفرزدق ومعاناته مع زوجته النوار، وواصل بن عطاء وصراعه مع بشار بن برد، ونتتبّع أبا نواس والمتنبّي والمعرّي والبحتري وأبا تمّام. صدرت للزعبي مجموعتان قصصيتان: «نصف ابتسامة» (2022)، و«كتاب الحكمة والسذاجة» (2019)، ومن ترجماته: «ما الذي أُؤمن به: مقالات في الحرية والدين والعقلانية» لـ برتراند رسل.

عن دارَي «ابن النديم للنشر والتوزيع» و«الروافد الثقافية - ناشرون»، صدرت الطبعة العربية من كتاب **جاك لاكان والسوسيولوجيا الأميركية: احذر الصورة** لعالم الاجتماع والباحث الكندي دوين روسيل (1982)، بتقديم وترجمة محمد الحناوي. يهدف الكتاب، الذي صدر بالإنكليزية عام 2019، إلى نقد هيمنة الأيديولوجيا البراغماتية الأميركية على عِلم الاجتماع الأميركي، مُثبتاً، من خلال نظرية لاكان حول الخطاب الرأسمالي، ما عانته هذه المدرسة من سوء تفسير لـ«الرمزي» في الحياة الاجتماعية، وعجزها عن استيعاب أدوات التحليل النفسي.

بتوقيع محمد ناصر الدين، صدرت عن «منشورات الجمل» الترجمة العربية لكتاب **عدْن عدْن عدْن** للكاتب الفرنسي بيار غيوتا (1940 - 2020). يضعنا العمل، كما نقرأ في مقدّمة المترجم، «أمام لوحة بصرية حادّة في صحراء الجزائر» بـ«لغة أشبه بقصيدة النثر في توهّجها ولمعتها في غالم تغيب عنه الهرمية والأخلاقية، وتتساوى كلّ الأشياء في حسّيتها وبراءتها الأُولى كما في جنّة عدن». بعد صدور الكتاب عن «غاليمار» عام 1970، أصدرت وزارة الداخلية الفرنسية مرسوماً يمنع إظهاره للعلن والتسويق له وتوزيعه على القصّر، ولم يُرفَع الحظر حتى عام 1981.